

اسم المقال: بنية المأساة في رواية (بديل الوطن) لقماشة العليان

اسم الكاتب: وئام محمد أنس

رابط ثابت: <https://political-encyclopedia.org/library/9393>

تاريخ الاسترداد: 2026/07/10 10:15 +03

الموسوعة السياسية هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت. لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسية - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسية - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع <https://political-encyclopedia.org/terms-of-use>



جامعة الشارقة
UNIVERSITY OF SHARJAH

مجلة جامعة الشارقة

مجلة علمية محكمة

للعالم
الإنسانية
والاجتماعية



المجلد 21، العدد 4

جمادي الثاني 1446 هـ / ديسمبر 2024م

الترقيم الدولي المعياري للدوريات 1996-2339

بنية المأساة في رواية (بديل الوطن) لقماشة العليان جمالية التشكيل

وثام محمد أنس⁽¹⁾

تاريخ القبول: 2023-12-14

تاريخ الاستلام: 2023-04-22

ملخص البحث:

لا شك أن الرواية تقع ضمن أهم الأجناس وأبرزها في التعبير عن أدق مشاعر الإنسان المعاصر، ومشكلاته اليومية، ومعاناته من أجل التوصل لحلها. وقد خطت الرواية السعودية - لا سيما النسائية منها - خطوات حثيثة نحو اقتحام عوالم لم تقربها من قبل، تمس اهتمام الفرد والمجتمع. تبحث الدراسة في إمكانية سريان المأساة وانخراطها في البناء السردي، ومدى إسهامها في تماسك عناصره وانتظامها؛ لتستوي كبنية فاعلة في الفضاء السردي، ولتجذر دواعيها وتنمو محركاتها؛ لتسهم في تفاعل عناصره، وتعيد أحداثه. تركز الدراسة على رصد مظاهر المأساة على كافة مستويات فضاء الرواية، وأبرز العناصر التي ارتكزت عليها بنيتها، وكيفية اشتغال هذه العناصر فنياً في رواية "بديل الوطن" لقماشة العليان. وقد برزت صور المأساة من خلال الموت لأفراد عائلة بطلة الرواية/ سلمى، بطريقة متشابهة ومتكررة، وتحققت عناصر بنية المأساة - كما نقل عن أرسطو - في الرواية، تشكَّلت بنية المأساة من خلال بعض التقنيات الفنية، بالإضافة إلى تحقق التوازي بين مفتتح الرواية وختامها، وبروز بعض التناقضات والصراعات من خلال الثنائيات المتضادة

الكلمات الدالة: بنية، مأساة، فضاء، تقنيات.

(1) كلية الآداب - جامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل (الدمام - المملكة العربية السعودية)

مقدمة الدراسة:

تُعدُّ قماشة العليان ضمن الكاتبات الخليجيات الرائدات في الكتابة عن المرأة، وقد حاولتُ ألا تسير كتاباتها على نمطية سردية تحصرها في زاوية فكرية واحدة، ويميل منها المتلقي في الوقت ذاته. وقد كانت مؤهلة بما تمتلكه من حس رومانسي ونفس شعري أن تكتب عن المرأة في رواية "بديل الوطن"، لكن في صورة غير معهودة في كتاباتها، تلك الصورة التي جمعت فيها بين وجهين للمرأة: الأول هذا الوجه الحزين المهموم مرهف الحس، الذي لا يشكو ولا يتكلم كثيراً، بل يكتم ألمه في نفسه، والثاني: رغم ضعفها كجنس رقيق، وما تعانيه من وحدة واغتراب، فإنها قادرة- بما تحمله من شعور بالمسؤولية وحب للآخرين وامتلاك لخاصية الإرادة الصلبة- على تحمل الشدائد ومواجهة الصعاب، بل وتخطيها بحكمة ووعي فاقا توقعات من حولها ممن تنصلوا من مسؤوليتهم تجاهها ومن تعولهم.

مشكلة الدراسة:

وتتجلى إشكالية الدراسة في مدى إمكانية تحقق المأساة واشتغال عناصرها في النص الروائي، في الوقت الذي اعتاد أغلبية الأدباء والنقاد ودرجوا على التنظير لاقتصار هذا التحقق وذلك الاشتغال على فن المسرح لا سيما المتخصصون فيه، وإن كان ليس بالضرورة أن يكون ذلك الاشتغال مشابهاً لما هي عليه بفن المسرح، وكذلك صدور تلك المحاولة عن كتابات نسائية واعدة تخطط طريقها نحو محاولة اكتشاف مكامن القوة ومواطن الإبداع لدى المرأة

أسئلة الدراسة:

1. ما مظاهر المأساة في الرواية؟
2. ما هي عناصر بنية المأساة في الرواية؟
3. كيف تشكلت بنية المأساة في الرواية؟

أهداف الدراسة:

1. رصد صور المأساة في الرواية.
2. تحليل عناصر بنية المأساة في الرواية.
3. اكتشاف التقنيات السردية التي أسهمت في إبراز عناصر البنية المأساوية في الرواية.

منهج الدراسة:

ترتكز الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي الذي تقوم الدراسة من خلاله برصد ظواهر المأساة ومفرداتها وإطارها العام، وكذلك تحليل النص الروائي لاكتشاف الآليات الفنية التي تشكّلت منها بنية المأساة. كما تستعين الدراسة بالمنهج النفسي الذي يهتم بتحليل النصوص الأدبية لاستنتاج الآثار النفسية التي برزت في ثنايا تلك النصوص، وكذلك العلامات والظواهر الفنية الناتجة عن تفاعل نفسية المؤلف والشخصيات مع النصوص، أو تلك التي أنتجت عمليات الشعور واللاشعور عبر التجربة الفنية.

لقد كان فرويد من أوائل علماء النفس الذين اهتموا بأوجه العلاقة الموجودة بين الظاهرة الأدبية والظاهرة النفسية، وحاول أن يفسر كثيرًا من نواحي الحياة الأدبية والنصوص الإبداعية والأعمال الفنية من زاوية التحليل النفسي، الذي يُعد رائده دون منازع. (أديوان، محمد، 2006، ص: 77: 87)

الإطار النظري:

عدَّ أرسطو المأساة من أنواع الشعر، ولكنَّ غالبًا ما تُعالج نثرًا في العصر الحديث. يعرفها بأنها محاكاة فعل نبيل تام، لها طول معلوم، بلغة متبلة بملح من التزيين، تختلف وفقًا لاختلاف الأجزاء، وهذه المحاكاة تتم بواسطة أشخاص يفعلون، لا بواسطة الحكاية، وتثير الرحمة والخوف؛ فتؤدي إلى التطهير من هذه الانفعالات. وللمأساة أجزاء منها ما يتعلق بفن التمثيل أو المقولة، وهذه الأجزاء الخارجية لا تكون جوهر المأساة، والأجزاء الثلاثة الباقية أجزاء جوهرية: الحكاية أو الخرافة، والخُلُق، والفكر. (هلال، غنيمي، 1997، ص: 62)

وفقا لهذا يكشف عنوان الرواية "بديل الوطن" منذ البداية عن صلات خفية بالثقافة وتحديدًا بمختلف الأشكال الأدبية التي تشكل جزءًا من الثقافة، وأول هذه الأشكال هي الدراما في نوعها المأساوي المتكسر عبر المأساة أو التراجيديا، التي تشكل مع الملحمة الأنواع الأدبية التقليدية الكبرى التي تناسلت منها الأنواع الأدبية الحديثة والمعاصرة ومنها الرواية، حيث يلعب التهجين دورًا حاسمًا في ربط الرواية بالأنواع الأدبية التقليدية، وإن كان الميل أكثر نحو استعادة فن الدراما أكثر من الملحمة نظرًا لتوفر الحس المأساوي في الدراما أكثر من الملحمة وهو ما تحتاجه الرواية المعاصرة للتعبير عن ظروف العصر المأساوية، التي تكشف عن عورات حضارة الإنسان وتوحشه، وبمعنى آخر فأهم ما استعارته الرواية المعاصرة من الدراما هو حسها المأساوي. (خالفي، حسين، 2019، ص: 263).

وربما يطرح جهاز العنوان "بديل الوطن" سؤالاً مهمًا، ألا وهو: هل يوجد بديل

للوطن؟ والإجابة العاطفية قطعاً ستكون بالسلب، فهو مسقط الرأس، ويمثل المرجعية الحياتية للإنسان، وأما المنطقية فستقترح بدائل عنه في أحوال الضرورة، فإذا كان الوطن في الأصل يعني وجود الوالدين والأقربين ومن سواهم ممن يتحلى بصفات قوامها الرحمة والاحتضان من بقية أفراد المجتمع؛ فمن الطبيعي عند افتقاد كل ذلك أن يبحث الإنسان عن بديل حتى لو كان خارج وطنه/ مسقط رأسه، ولعل هذا ما يحيلنا إليه عنوان الرواية الرئيس، وحتماً وجدنا صداه في متن الرواية؛ حيث سنجد بطلنة الرواية/ سلمى تبحث منذ افتقاد جل مكونات الدلالة لكلمة "وطن" بدأب بالغ- لفت انتباه من حولها وأثار معارضتهم- عن أهل والدتها فاطمة في كركوك بالعراق، حتى وصلت إليهم فأحست براحة نفسية لم تشعر بها حتى في ظل وجود أمها وأبيها، ومعها إخوتها يشاركونها الشعور نفسه.

وقد قامت بعض الدراسات حول صورة الرجل والمرأة المكونين للعائلة، أبرزها:
 (صورة المرأة في روايات قماشة العليان: رواية "أنثى العنكبوت" أنموذجاً) لأسماء الصاعدي. يهدف البحث إلى دراسة مدى حضور قضايا المرأة ونماذجها وأساليب تصويرها في الرواية السعودية، عبر دراسة هذا الحضور عند كاتبة من أهم كاتبات الرواية النسوية السعودية وهي "قماشة العليان"، ومن خلال نموذج روائي دال هو روايتها "أنثى العنكبوت".
 وتابع البحث منهج النقد النسوي، وتم تطبيقه على رواية "أنثى العنكبوت". ومن أهم النتائج التي توصل إليها: حضور المرأة في خطاب العليان الروائي من خلال قضاياها المختلفة. (الصاعدي، أسماء، 2022، ص: 89: 108)، بينما تركز هذه الدراسة على مظاهر المأساة لا سيما في حياة البطلة (سلمى) ومدى تحملها ومعاناتها في حل اللغز المحاط بها، وعناصر بنيتها المكونة لها، والأدوات التي تشكلت من خلالها فنياً. و(صورة الرجل في روايات قماشة العليان)، عصام حسين إسماعيل أبو شندي. تُحلل هذه الدراسة خمساً من روايات قماشة العليان لتظهر صورة الرجل في هذه الروايات. هناك عدة صور للرجل في هذه الروايات الأولى هي صورة الرجل الذي يشبه الشيطان، والثانية هي صورة الرجل الذي يحمل الضعف في مظهره، الصورة الثالثة هي صورة الرجل المريض، وأخيراً، صورة الرجل الإيجابي. (أبو شندي، عصام حسين إسماعيل، صورة الرجل في روايات قماشة العليان، 2019، ص: 107: 129)، لكن بؤرة اهتمام هذه الدراسة تتمحور حول المأساة في حد ذاتها، وطبيعتها، وآثارها على جميع الأشخاص رجال ونساء- وإن كانت البطلة تحتل المساحة الأكبر في التعامل معها والتأثر بها- ولم تهتم بإبراز صور الرجل في الرواية إلا بقدر علاقته بالمأساة، ويأخذ والد سلمى النصيب الأكبر من تسليط الضوء فهو شخصية جاءت صورتها عبر مرحلتين تغيرت تبعاً لطبيعة كل منهما حيث اتسمت في بدء الرواية بقوة الشخصية والجدية والإيجابية، ثم انقلبت بعد ذلك تأثراً بتكرار المأساة تلو الأخرى إلى شخصية هشة محبطة وسلبية. و(المرأة الجديدة في قصص قماشة العليان) لسмир بن

أحمد الشريف. تدور الدراسة على إناث قصص مجموعة "دموع في ليلة الزفاف" اللائي تجاوزن النمطية السائدة وجاهدن أن يرسمن عالمهن ويؤسسن لاستقلاليتهن بصبر وتأن لا يخلو من الانفعال أحياناً، كما أن شخصيات القصص ناضجة فكرياً وفنياً، وجاءت مغامرة شجاعة مقنعة في طرح قضاياها وإن عكست قلقها أحياناً وعدم رضاها عما وصلت إليه وأن لديها طموحاً في تجاوز عجزها والوصول إلى حالة من التوازن النفسي والفكري على حد سواء. (الشريف، سمير بن أحمد، 2003، ص663: 670) لكن هذه الدراسة تعالج صور المأساة لعائلة سعودية، تتحمل فيها البطلة/ سلمى مسؤولية البحث عن حل للغز المتسبب في هذه المأساة، وقد أضفت الكاتبة شيئاً من الواقعية على الأحداث والشخصيات فرغم شخصية البطلة القوية وتحليها بالطموح والصبر والمثابرة، فإنها قد تأثرت في مواطن متعددة من فضاء الرواية بتوالي هذه المآسي وأصابها الضعف والإحباط أحياناً.

أولاً- صور المأساة:

تنوعت صور المأساة وتعددت في الرواية، وإن كان مصدرها واحداً ينحو منحىً غيبياً، يدور حول بعض العادات السيئة، مثل: السحر (الأعمال)، والتردد على الدجالين والمشعوذين.

سلمى:

تُعد سلمى الطبيبة الناجحة في عملها الشخصية الرئيسة/ بطلة الرواية التي تنطلق منها محاور السرد وترتد إليها في الوقت نفسه. يتمثل جوهر المأساة لديها في أنها أكبر أخواتها؛ ولذا فدرجة الحساسية لما يدور داخل الأسرة أشد من إخوتها، فقد شهدت منذ نعومة أظفارها أحداثاً جساماً تقض مضجع أي إنسان في الوجود، بداية من موت أمها زينب "أسدل الستار وانتهت المسرحية وانحنى الممثلون بنحية الوداع، ماتت أمي والتحففت عزلتها إلى الأبد... مضى يوم وفاتها وأيام كثيرة تلتها وأنا في شبه غيبوبة، صعقتي المشهد وألجمني الموقف وأسقطتني الحمى" (العليان، قماشة، 2021، ص33)؛ ومن ثم زواج أبيها من فاطمة التي ولدت خمسة أجنة كلهم ينزلون موتى من رحم أهمهم واحداً تلو الآخر، ثم موت أخيها الصغير بدر الذي ابتلي بالإعاقة، ثم زوجة أبيها فاطمة، ثم أبيها "ثم بدأ الزبد يخرج من فمه، صرخت بقوة صرخة يتردد صداها في أنحاء البيت، لكن مات أبي" (العليان، قماشة، 2021، ص65)، ثم جدتها، ثم مرض أخيها خالد بالسرطان، هذا بالإضافة إلى تجاوزها سن الأربعين ولم تتزوج بعد. لكن جوهر المأساة يتمثل في تفكيرها وبحثها الدؤوب عن تفسير منطقي لموت أحبائها بداية من موت أمها حتى أبيها، لا سيما إذا كانت الطريقة التي ماتوا بها جميعاً متشابهة، بل تكاد تكون واحدة، النظر المفاجئ إلى شيء مجهول وخفي مصحوب بذهول وذعر ينتهي بإرغاء فموت. "نظرت أمامها بخوف

ورعب لا حدود لهما، ثم تحشرج صوتها، اقتربتُ منها بسرعة سمعتها تهمس قبل أن يغيب صوتها للأبد والزبدُ يخرج من فمها: قتلني يا سلمى" (العليان، قماشة، 2021، ص 31).

زينب:

زوجة علي السعيد وأم سلمى وعمر وخالد وبدر، مسقط رأسها كركوك، وتزوجت في السعودية بالمنطقة الشرقية، كانت آية في الجمال والرقّة، مما جعل زوجها علي يغار عليها لدرجة إحاطة البيت بأبواب وشرفات من حديد، عاشت ضحية الجهل والانتقام الشخصي العائلي "لكن الشيخ أوصانا بعدة وصايا وألزمنا بالتقيد بها وقال محذراً بلهجة الناصح: الفتاة تعاني من تسلط الشياطين وملك الجن متلبس بها" (العليان، قماشة، 2021، ص 171)؛ حيث كانت تغلق عليها باب غرفتها في أغلب الأيام وتظل تبكي دون سبب، ورغم عرضها على الأطباء النفسيين- وعلى رأسهم كبير الأطباء في العاصمة- وأم إبراهيم التي تعالج باستخدام الأدوية الشعبية والكي، فلم تتحسن حالتها أبداً وكان تشخيص الأطباء (اكتئاب نفسي)، وقد تفاقمت تلك الحالة مع طول فترة انتظار الحمل وعرضها مرة أخرى على الأطباء حتى أنجبت خالداً ورغم فرحها لمحيئه فإنها عادت مرة أخرى للحالة نفسها، حتى كان مشهد الموت المروع التي رآته ابنتها الصغيرة سلمى، وظل منطبعا في ذاكرتها ومحرّكا في الوقت ذاته لأحداث الرواية وسلوك الشخصيات.

علي السعيد:

أحب زينب وملكت عليه قلبه، حتى حين أصابته نوبة شديدة سكنت على إثرها المستشفى لمدة طويلة أثناء فترة الخطوبة، وساءت حالتها لدرجة جعلت أهله يصرفونه عنها ويزهدونه فيها، تمسك بها وصبر حتى شفيت وتزوجها، وتكمن معاناته في انعزال زوجته زينب في غرفتها وفشل محاولاته في علاجها، ثم موتها وتركه وحيدا مع أبناء أربعة، ورغم زواجه بعدها من فاطمة التي أضفت جواً من البهجة على البيت كله، مما جعله ينعم بأيام لم يعهدها مع زينب رغم أن مستوى جمالها كان لا يُقارن بمستوى جمال فاطمة إلا أنها كانت تنسم بخفة الظل وتحظى بقبول لدى الجميع، لكن هذه السعادة ذهبت أدراج الرياح، وانطفأت جذوتها بموت فاطمة، وهو وإن بدا سلبياً في استسلامه لعزلة زينب، فقد اختلفت ردة فعله بعد موت فاطمة فافتقد حتى لهذه السلبية وأصابه الحزن الشديد واليأس فلم يذق طعماً للراحة ولا للحياة.

وظل على ذلك حتى مات بالطريقة نفسها التي ماتت بها زوجته زينب وفاطمة.

خالد:

الفتى المدلل وأكثر إخوته وسامة فهو صورة طبق الأصل من أمه "عينها الملوّنتان

واللتان تحتار أي لون يسكنهما أهو الأخضر المزرق أم الرمادي الداكن أم العسلي المظلل بشقرة أم الفيروز هو لون عينيها؟ ذات البشرة ورثها عن والدته، بشرة بيضاء مشربة بحمرة ناعمة، لم تفلح مظاهر الرجولة في زيادة خشونتها أو خدشها، الشعر البني الداكن، ووداعة أسرة رافقته في كل مراحل عمره" (العليان، قماشة، 2021، ص 15). لكنه لم يكن يعلم أن هذه المميزات التي حباها الله إياه ستكون سبباً في مأساته، بل ستصبح وبالأعلى عليه، حينما يتم الاعتداء عليه من أحد الطلاب بالمدرسة ويكتشف ذلك السائق فيستغل ما حدث في ابتزازة؛ حيث يصبحه قسرًا في مكان ناء حيث يسكن ويمارس الاعتداء عليه هو ورفاقه، بل يجعله يجرب التدخين ومشاهدة الأفلام الخليعة، وقد تكرر هذا الاعتداء دون تجرأ منه على البوح لأحد من أهله، وربما يرجع السبب في هذا لأمرين: أحدهما يرجع إلى الخوف من نشر السائق الفيديوهات التي صورها له أثناء الاعتداء عليه في مدرسته وبين أقرانه، والثاني لانشغال أفراد الأسرة جميعهم- ومنهم سلمى التي كانت لإخوتها بمثابة الأم- في موت أجنة فاطمة زوجة أبيه الواحد تلو الآخر وكذلك مرضها بعد ذلك، وتظل هذه المحنة حتى يأتي أمر الله ويتم القبض على السائق ومن معه في الشقة بتهمة الأعمال غير الأخلاقية. لكن المأساة تتطور من خلال استمرار خالد للشذوذ، بل وتناقسه مع أحد زملاء الدراسة في اصطيد الزبائن من الطلاب الأثرياء، حتى تبلغ الذروة حين يكتشف أنه مصاب بالسرطان وتتصاعد المحنة عند تخلي جميع أصدقائه عنه وحظرهم له على الجوال من جهات الاتصال فيصبح وحيدًا شريدا لا يريد أن يخبر سلمى فيثقل عليها حتى تكتشف بنفسها. (العليان، قماشة، 2021، ص 91: 93)

بدر:

ابتلي بالإعاقة منذ نعومة أظافره "طفلان صحيحان وطفل مُعاق يحتاج إلى جهود نفسية وبدنية ليتعايش مع الآخرين" (العليان، قماشة، 2021، ص 18)، ورغم انشغال أمه (زينب) في أحزانها واكتئابها، فإن الله سبحانه سخر له سلمى أخته لتعتني به، حتى بعد وفاة أمه جاءت زوجة أبيه (فاطمة) لتكمل دور سلمى وتعامله كما لو أنه ابنها، لكنه توفي بالطريقة نفسها التي توفيت بها أمه وهو على أعتاب سن المراهقة (العليان، قماشة، 2021، ص 43).

فاطمة:

كان زواجها من علي السعيد وحلولها محل زوجته زينب إيذانًا بمرحلة جديدة، استطاعت تغيير مسار البيت من الحزن إلى الفرح، ومن الكآبة إلى السعادة، ومن الخمول إلى النشاط والحيوية، ورغم أنها لم تحظ باستقبال حافل وسعادة غامرة، فإنها قابلت ذلك بالتسامح والود، ونجحت في كسب ود الجميع الزوج والأبناء، بل كذلك الجدة أم أبيهم.

تمثلت مأساتها في موت أطفالها إثر ولادتهم مباشرة "تكرر الأمر خمس مرات متتالية، 4 ذكور وأنثى واحدة، بنفس النهاية رغم تغيير المستشفى وتبديل الأطباء والأدوية وحتى ديكورات المنزل" (العليان، قماشة، 2021، ص 53)، ورغم محاولاتها- بعد كل موت لجنين- للتجلد والوقوف من جديد فإنها "أعيتها الحيل وأدماها اليأس فذبلت زهرة حياتنا، ووقدت فاطمة طريحة الفراش لا تغادره إلا لمأماً". ثم كان موتها بالمستشفى أثناء مسامرتها مع سلمى من خلال المشهد المريع نفسه.

سعاد:

صديقة سلمى المقربة وزميلة الدراسة حيث تعرفت عليها في مكتبة كلية الطب لمست فيها الجدية والشغف بالعلم بعكس كثير من الطالبات اللاتي استحوذ على اهتمامهن ما يتعلق بـ (الموضة) وأحاديث الحب والغرام، وقد استمرت هذه العلاقة بينهما حتى بعد التخرج حيث قررا فتح عيادة خاصة تتقاسمان العمل فيها. وحيدة أبويها؛ ولذا بعد محاولات والدتها المتكررة للإنجاب باءت بالفشل "قامت بكفالة أحد الأيتام من دار الرعاية بالدمام، تقول سعاد بأنها كرهت الطفل من أول نظرة، لم يعجبها لونه الأسمر ولا احتفاء والديها به، لم تكره أحدًا كما كرهت هذا الطفل واقتحامه عالم وحدتها المحتمل، كبر الطفل وازداد النفور" (العليان، قماشة، 2021، ص 60). وتتجلى المأساة الثانية في زواجها الفاشل من أحد أقارب والدها الذي درس وعمل فترة في أمريكا الذي انتهى بطلبها الطلاق. هذا بالإضافة إلى مشاركتها سلمى الهموم التي تؤرقها وتقض مضجعها كصديقة وفيية مخلصنة لصديقتها حتى إنها ظلت تشاركها البحث في كتب الطب عن تفسير علمي للغز موت أهلها بطريقة تكاد تكون واحدة.

ثانيًا- بنية المأساة:

"يستفاد من أرسطو أن للحكاية في المأساة خمسة أجزاء: التحول، والتعرف، والعقدة، والحل، وداعية الألم" (هلال، غنيمي، 1997، ص 69)

1. التحول:

يشير أرسطو إلى أنه "تغير مجرى الفعل إلى عكس اتجاهه" (ترجمة إبراهيم حماده، 2019، ص 122). "ويتجاوز مجرد تغير مصير البطل، لأنه تحول الفعل إلى نقيضه، بالانتقال من السعادة إلى الشقاء أو العكس" (هلال، غنيمي، 1997، ص 69). ويتمثل التحول لا سيما عند بطلة الرواية (سلمى) في تبدل حياتها البريئة كطفلة وحتى تكبر وتصبح طبيعية، وذلك لما دخلت على أمها غرفتها ووجدتها مذعورة تنظر إلى شيء في الأعلى وتبكي وعبئًا تنادي عليها وكأنها لا تسمعها، وتظلم الدنيا في وجهها ويتحول البيت

والحياة إلى جحيم، ويتكرر المشهد بعد ذلك مع فاطمة زوجة أبيها التي صارت تشعر معها بأنها كأم أو صديقة، ثم بدر أخيها، ثم أبيها، لتتحمل المسؤولية رسمياً وإن كانت تحملها منذ نعومة أظفارها لعزلة أمها من جهة وعدم اكترات أبيها من جهة أخرى، ثم مرض خالد بالسرطان وبحثها الدائب وطرق جميع الأبواب لمحاولة علاجه. وتبلغ ذروة التحول بعد أن تجد سلمى ضالتها وتعثر على أقاربها من ناحية أمها حيث تسافر بصحبة إختها إلى كركوك بالعراق، وتشعر حينذاك- هي وعمر وخالد أخويها- بالدفء العائلي الذي افتقدته حتى أثناء حياة أمها الذي كان جزئياً، وبالطمأنينة والاستقرار النسبي، ورغم ذلك تُسدل الستار في الرواية على موت جدتها بالطريقة نفسها التي توفي بها أهلها.

وقد تمثل التحول عند علي السعيد أبي سلمى بعد موت زينب التي أحبها وملكت عليه قلبه، لكن تبلغ ذروة التحول بعد موت أطفاله من فاطمة الزوجة الثانية تباعاً بعد الولادة مباشرة، ثم موت فاطمة الذي أحس معه بضياع الهوية والخواء ومن ثم الانعزال التام عن أسرته وتدهور حالته النفسية ثم موته

وعند خالد في خدش طفولته وتلويث براءته بعد الاعتداء الأثم عليه مراراً وتكراراً من السائق، حتى استمرراً الأمر بعد ذلك واتخذ من ذلك متعة ومهنة في الوقت نفسه، وتفرق الأصدقاء عنه بعد إصابته بمرض السرطان

2. التعرف

لم يأت التعرف في الرواية مرة واحدة، إنما جاء على ثلاث مراحل: الأولى "الكتاب الأخضر" عند دخول سلمى على أبيها لحظة موته وقد أصابه الفزع أثناء نظره للشيء المخيف ويقول: "سلمى ابتعدى الكتاب الأخضر لا تنسى" (العليان، قماشة، 2021، ص65)، ولأن سلمى قد انشغلت ساعتها بما يحدث لأبيها وتكرار مشهد الموت نفسه الذي أصاب أمها وفاطمة وأخيها بدر، فلم تلق بالألموموضوع الكتاب ولم تتذكره إلا حينما قرر أخوها عمر الزواج، وأراد أن يجهز غرفة أبيه تمهيداً للزواج فيها، فقررت ساعتها الإسراع إلى غرفة أبيها وظلت تبحث عن الكتاب الأخضر حتى وجدته بمساعدة أخيها عمر. والثانية "محاولات الكشف" تلك التي اجتهدت فيها سلمى قدر استطاعتها لتلم بمحتوى الكتاب، لكنها تفاجأت بأن لغته غريبة فذهبت به إلى مكتب ترجمة فلم يتبينوا حتى نوع اللغة المكتوب بها الكتاب، فحاولت معرفة ذلك من خلال شبكة "الإنترنت" فتبين لها أن لغة الكتاب كردية، اضطرت سلمى أن تخبر أخاها عمر ليساعدها في فك شفرة الكتاب فأخبرها أن معهم في الشركة موظف كردي الجنسية، فاقترحت عليه أن يضيّفه على الغداء ويعرض عليه الكتاب، وبالفعل صورت له سلمى صفحة من الكتاب ليطلع عليها، وكانت النتيجة أن هذا الكتاب يشبه القصة أو المذكرات بدايته وصية من جدتهم لابنتها (زينب) أن تنتبه

لنفسها، لكنها لم تسلم له الكتاب كاملاً لخشيبتها من ضياعه من جهة، ولأن به أسرار عائلية لا يجب أن يطلع عليها أحد من خارج العائلة. والثالثة "حل اللغز" حيث تُقرر سلمى السفر إلى "كركوك" بالعراق موطن جدتها وخالاتها لمعرفة حقيقة هذا الكتاب، والتعرف على التفاصيل الدقيقة التي تفسر طريقة الموت التي توفي بها أفراد عائلتها، وذلك من خلال الاستماع من المصدر الأصلي (الجدّة)، وبالفعل تسافر بصحبة عمر وزوجته وابنهما علي، وخالد، وما أن يصلوا حتى تبدأ معاناة البحث عن عائلة أمهم بكركوك، وما إن يعثروا عليهم ويلتئم الشمل حتى تتعرف سلمى على ابن خالتها يوسف، وهو "ضابط في الجيش العراقي، وسبق له الزواج منذ أعوام، لكنه انفصل عن زوجته قبل عامين بدون أطفال" (العليان، قماشة، 2021، ص 151) فلم تتردد في الطلب منه أن يترجم لها الكتاب

ويبدو أن منبع المأساة يبدأ من جهة جدة سلمى؛ حيث تقص على ابنتها زينب في الكتاب قصتها منذ أن كانت فتاة وتقدم لها أبو سلمى من السعودية وهو شاب طموح ذو خلق عالٍ، وانقسمت العائلة تجاهه قسمين بين مؤيد ومعارض فولدها ووالدتها وقسم من العائلة يرحبون به، لكن الرفض كان من عمته التي كانت تريدها لابنها الفاضل الفاسد وقد نجحت في استمالة أمها أيضاً فتكونت جبهة معارضة من عمته وجدتها لهذه الزيجة، وعبئاً حاول أبوها استمالتهم بالأسلوب الرقيق وبالهدايا لكن لم يستجيبوا، والأدهى من ذلك تطاولوا عليه واتهموه بأنه يؤثر هذا الشاب لطمعه في المال، بل توعدته أخته إن خرج من عندها دون الموافقة على ابنها فلن يرى خيراً لا هو ولا ابنته، حاولت أمها أن تهون من تلك التهديدات وأنهم سينسون حتماً، لكن أصيبت الفتاة (جدة سلمى) قبل العرس بمرض غامض حار فيه الأطباء فعجزوا جميعاً عن إيجاد علاج له، فأخذتها أمها إلى امرأة عجوز تقطن في أطراف المدينة، لكنها أكدت لهما إمكانية علاجها بشرط واحد وهو أن (الآسياد) سيأخذون أبناءها الذكور ويتركون الإناث، يختارون منهن لما يكبرن ويقررهن مصيرهن عندئذ، ثم طلبت كل ما مع أمها من النقود وطلبت منهما التوقيع على ورقة صفراء زعمت أنه عقد مع الشيطان الأكبر، وبالفعل تشفى الفتاة وتتزوج، لكن في كل حمل بذكر يموت المولود حتى توفي لها سبعة من الذكور وعاش سبع إناث. حتى ولدت زينب (أم سلمى) لكنها كانت ضعيفة يصيبها المرض بين الحين والآخر، بالإضافة إلى رؤية الكوابيس المتكررة، وبعد معاناة مع مرض زينب أحضرت أمها شيخاً ليقراً على حفيدتها القرآن وكتب لهم بعض النصائح يلتزمون بها ليتم الله شفاءها ولا تنتكس مرة أخرى، مثل: المحافظة على الصلاة، والأذكار، وقراءة القرآن... رغم ذلك فإشفاق الأم على ابنتها وحرصها عليها جعلها تذهب مرة أخرى إلى السيدة العجوز قبل زواجها من علي (أبي سلمى) وسفرها معه- بعدما سقطت أثناء حفل خطبتها منه، وعاولدها المرض مرة أخرى واشتد عليها حتى تملأ أهل علي وبدؤوا ينصحونه بتركها- وتعطيها حجاباً تنصحها أن تحتفظ به في عنقها ولا تخلعه أبداً ولا يلبسه غيرها. ولذا كتبت لها أمها هذه

النصائح والتعليمات في الكتاب الأخضر كي لا تنسى بالإضافة إلى النصح الشفوي الذي قوبل بالإيماء بشكل فيه لامبالاة من الفتاة (زينب). ويبدو أن ما حدث لزينب بعد ذلك كان بسبب إهمالها نصائح أمها لا سيما ما يتعلق بالمواظبة على العبادة والصلة بالله عز وجل.

3. العقدة والحل

تتميز الرواية بأنها ذات نهاية مفتوحة على تخمينات القارئ وتأويلاته حول مصير أسرة سلمى، ما يعني أن العقد في الرواية تفتقر إلى حل واضح (خالفي، حسين، 2019، ص269)

لا سيما وأن الأزمة في الرواية مصدرها السحر والطلاسم، مما يضيف عليها جواً من الإبهام والغموض، وقد عضد هذه المزية انتهاء الرواية بخبر موت جدة سلمى بالطريقة نفسها التي توفي بها أفراد عائلتها

تبدأ العقدة من خلال تقنية الاسترجاع وذلك بعد فك شفرة الكتاب الأخضر، حيث تتعرض حياة (جدة سلمى) الهادئة أثناء شبابها للاضطراب بعد تقدم شاب سعودي لخطبتها، بينما تتعرض في الوقت ذاته لمضايقات ابن عمته المهمل منعدم الطموح ورغبته هو الآخر في خطبتها، وباختيار الفتاة للشاب السعودي الناجح الطموح تتأزم العلاقة بين أسرتهما من جهة وعمتها وجدتها لأبيها من جهة أخرى، ومع إصرار الطرفين على موقفيهما تشهر عمتها سلاح التهديد والوعيد، الذي تظهر علاماته كواقع مزعج ومنغص، بداية من تقدم الشاب السعودي للخطبة وممتداً بعد زواجهما، بل وفي نريتهما.

إن ما يميز العقدة أولاً في هذه الرواية هو سريانها وامتدادها عبر الزمن، ومن ثم لم تصب جيلاً واحداً بعينه، بل تأثرت بها أجيال مختلفة؛ مما يعمق من فداحة المأساة وإن كان سيقلل من فرص الحلول.

وثانياً أنها تقوم على التناقض فستان ما بين جمال الجدة وهي فتاة ثم ابنتها التي فاقتها جمالاً لدرجة جعلت زوجها يحيط المنزل بشرفات حديدية غير خشبية عليها من جهة، وبين ما أصابها من مرض واكتئاب وموت لأبنائهما

وثالثاً اختلاط العقد ببعض المنغصات الأخرى، فمثلاً بعد موت زينب تنتقل جدة سلمى أم أبيها للعيش معهم في البيت بصحبة خادمتها، مما يحد من حرية سلمى وإخوتها ويجعلهم أكثر عرضة لشدها وصرامتها، بالإضافة إلى زواج أبيها من فاطمة بعد موت والدتها زينب، مما جعلها تشعر بالغيرة وتقارن بين جمال أمها وتواضع مستوى جمال فاطمة، لكن الشعور الأكثر مرارة على نفسها هو شعورها بأن هناك من سيحتل مكان أمها. لكن المنغص الأكبر هو تعرض خالد وهو طفل للاعتداء- الذي لم يعلم أحد عنه شيئاً سوى

خالد نفسه- ثم مرضه بالسرطان الذي أضاف معاناة لسلمى فوق معاناتها كأخت تشعر بمسؤوليتها تجاه إخوتها لا سيما بعد موت أمهم وأبيهم.

ورغم محاولة الكاتبة إيهامنا بوجود حل لهذه العقدة، فإن القارئ لا يفتأ يكتشف أنه أمام مراوغة سردية، يتبدى لنا ذلك من خلال نجاح سلمى بعد محاولات حثيثة للوصول إلى أقاربها أهل أمها (جدتها- خالاتها)، سواء وهي بالسعودية في سؤالها أعمامها وعماتها عن عنوان أقارب أمها بالعراق، أم بالعراق وكركوك تحديداً وتحريها من خلال سؤال الأشخاص أو الذهاب إلى قسم الشرطة، ورغم ذلك لم يجدها كل ما سبق نفعاً، بل لعب القدر دورَه في عثوره عليهم، حيث تقابلت مع خالتها وابنتها في إحدى حمامات كركوك الخاصة بالنساء. فمن خلال الترحيب الحار بسلمى وإخوتها والشعور المتبادل بالدفع العائلي، وتمكن سلمى من ترجمة الكتاب الأخضر يتوقع القارئ مع فك الشفرة حلاً بل إنهاءً للأزمة، لكن للأسف تستمر سلسلة الموت الغامض لأفراد العائلة

4. داعية الألم

وهي الفعل الذي يُهلك أو يؤلم، وما إلى ذلك مما تسوقه المصادر ويكون مثار الرحمة، ولداعية الألم صلة بمفهوم الخطأ، أو ما يسمى باليونانية (هامارتيا) (هلال، غنيمي، 1997، ص71) وهو مصطلح من أعقد المصطلحات لدى أرسطو التي دار حولها جدل طويل، فقد تعني عند مفسريها: الخطأ، أو الزلة، أو العيب، أو النقص الخُلقي، أو سوء التقدير، وربما ينتج عن أحد المسببات الأرسطية، مثل: جهل البطل بحقيقة مادية، أو وضع ما. (ترجمة إبراهيم حماده، 2019، ص135) ويدور على المسؤولية التي تقع على عاتق الشخصية نتيجة اتخاذها قراراً غير صائب أو قيامها بفعل مشين. وإذا طبقنا ذلك على هذه الرواية فربما نبرئ الشخصيات التي ابتليت بهذا الطريقة المخيفة من الموت، ومن المنطق أن نتجه إلى المصدر أو المتسبب الأول في هذا البلاء/ جدة سلمى، فما الخطأ الذي ارتكبته كي تُصاب بهذا السحر الأسود؟ أليس من حقها أن تختار من تتزوجه؟ أليست إنسانة لها مشاعر ومن حقها أن تحب أو على الأقل تميل إلى أحدهم؟ ما يتضح لقارئ الرواية هو أنها المجني عليه وأن الجاني هو عمتها التي توعدت أباهما، فما الذي جنته- من وجهة النظر الأرسطية- كي تصيبها هذه الابتلاءات من مرضها وموت أبنائها الأولاد ثم تصديرها إلى ابنتها الكبرى زينب؟ هل لأنها ذهبت إلى المرأة الدجالة المشعوذة برفقة أمها وصدقها فيما ادعت وطاوعاها فيما طلبت؟ أم لأنها لم تتحصن من البداية- هي وابنتها زينب- بأيات القرآن الكريم والأذكار المأثورة، تجاه هذا السحر وسلكت الطريق الصحيح؟ أم لأنها لم تدرك هذا الخطر منذ البداية وتعرف المتسبب فيه فتواجهه وتحاول إبطال مفعول السحر؟ كلها أسئلة تظل تطرح احتمالات في حالة ما إذا كان البلاء الذي أصاب هذه الشخصيات ناتجاً عن سلوكهم أو قرارهم

لكنه في الحقيقة إذا استندنا إلى نظرية المسؤولية في إدانة الشخصيات في الرواية، فقد يستوقفنا سؤال ألا وهو: لماذا توفيت فاطمة زوجة أبي سلمى بالطريقة نفسها وهي ليست من العائلة؟ بل ما جريرة أجنيتها الذين توفوا واحداً تلو الآخر؟ ألمجرد ارتباطها بتلك العائلة دون أن تسأل أو تثبت؟

لعل كثرة الاحتمالات تلقي بظلال الغيوم على الدواعي، ربما لأن المسألة متعلقة بالقدر والغيب وبحكمة الخالق سبحانه في ابتلاء عباده.

ثالثاً- جمالية التشكيل:

تشكلت المأساة في الرواية من خلال ارتكاز الكاتبة على تقنيات عدة، أبرزها ما يأتي:

1. الزمن النفسي:

يرى نيوتن أن الزمن الاصطلاحي هو الزمن المطلق الحقيقي الرياضي، يجري بنفسه وبطبيعته بصورة مطردة، دون أية علاقة بأية شيء خارجي. ويُقارن عادةً بالزمن السيكولوجي (أي العلاقة الزمنية بين الذاتي والموضوعي) فزمن الساعة لا معنى له للخيال، وإنما هو عُرفٍ كفي وضع لضرورة اجتماعية بغية تنظيم وتنسيق الأفعال التي تمس أكثر من شخص واحد، أما تجاربنا وأفكارنا وعواطفنا فتسير بسرعة شخصية مختلفة. وتوضح "أ. أمندلاو" أنّ إحساسنا بسرعة التجربة ومدتها يُقدر بمدلولات القيم فقط. (ترجمة بكر عباس، 1997، ص 77) فالزمن في هذه الرواية له مفهوم خاص يختلف عن الزمن القياسي الطبيعي، فقياسه خاضع لتكوين الشخصيات وتحركاتهم ورؤيتهم للحياة ونبض مشاعرهم. فسلمى تصف خروج أمها زينب من عزلتها واندماجها مع زوجها وأبناءها، وتبادلها الضحكات مع أبيها "أستحلب الثواني والدقائق والساعات لا أريد أن تمر ثانية دون أن أراها وأسمعها وأرقبها، إنها فرصة لا تتكرر كثيراً" (العليان، قماشة، 2021، ص 25) فكان الذات/ بطل الرواية تمارس سلطتها في محاولة لإيقاف الزمن، وقد تمثل ذلك من خلال صيغة الفعل "أستحلب" التي أوحى بمدى الجهد والمعاناة في طلب واستحضار تلك الأوقات السعيدة التي صارت عنواً وعلامة من علامات حضور أمها بعقلها وقلبها ممتزجة ومتفاعلة مع أسرتها

لقد تغير مفهوم الزمن في رؤية سلمى وإخوتها، حتى صار محصوراً في قيمة واحدة وهي السعادة التي يشعرون بها، ولذا فالعلاقة هنا طردية فعند افتقارهم تلك القيمة/ السعادة سينعدم اعترافهم بالزمن وكأنهم يتحولون من الوجود إلى العدم/ اللانزمن، وقد تحقق ذلك عند موت الأم/ زينب "غادرنا الزمن الذي ننتظر فيه صحو أمي من إغفائها المتقطعة وعودتها إلينا... لن تعود أبداً بعد اليوم" (العليان، قماشة، 2021، ص 33) وقد أسهم

الفعل الماضي "غادرنا" مقابل المضارع المنفي بلن "لن تعود" في الجزم بهذا الانقطاع الزمني

وكذلك فإن رؤية الذات للأشياء تتبدل وفقاً لهذا المفهوم "نعنُّها بالمدينة الحزينة لكنها بين يوم وليلة تبدلتُ وتزينت، خلعتُ عنها رداء الحزن والخجل والخفر، وتعدت أماننا وأمعنت في الاحتفاء بنا لتراقصنا في جذل وحبور" (العليان، قماشة، 2021، ص 146) فالمعاناة التي قابلت سلمى وإخوتها منذ أن وطئت أقدامهم كركوك بسبب البحث عن أقرابهم، لدرجة وصلت لياس عمر وقراره العودة إلى السعودية لانتهاء الإجازة التي حصل عليها من عمله، وما صاحب ذلك من ألم وشعور بالحزن والحيرة، تحول في لمح البصر إلى سعادة وشعور بالألفة بينهم وبين المدينة فكانه شعور متبادل بينهم وبين شخص بعينه يشاركونهم هذا الشعور بالفرح، بل ويتفاعل معهم.

بل إن عناصر الزمان (الماضي- الحاضر- المستقبل) تتعطل تماماً حسب هذا المؤشر/ السعادة، ففي حديث سلمى عن يوسف ابن خالتها ومشاعرها تجاهه تقول: "صوته فقط يزلزلني من الداخل، وكأنني لم أعرف رجلاً سواه، يمتلئ المكان به، عندما يحضر يتوقف المكان والزمان والحاضر والمستقبل، ويختصر العالم بإنسان واحد فقط" (العليان، قماشة، 2021، ص 180) وبذلك تصير الذات والعامل النفسي هما المؤشر الحقيقي للزمان وليس عقرب الساعة التقليدي

2. توزيع السرد:

لم تنحصر الرؤى السردية في الرواية في رؤية واحدة، فتعددت زوايا النظر مما ترتب عليه تنوعاً في الرواة، على اعتبار أن الراوي هو "التقنية التي من خلالها تنطلق رؤيته إلى عالم روايته" (يوسف، أمانة، 2015، ص 50)

وأبرز من توزع بينهم السرد: الراوي العليم، وسلمى/ البطلة، وخالد، وجدتها من ناحية الأم، وإن كانت سلمى قد استحوذت على مساحة أكبر من بقية الرواة، ربما باعتبارها النواة المركزية التي شكلت المرجع الرئيس التي تتلاقى عناصر الرواية من شخصيات وأحداث عنده. فالراوي العليم هو الذي يبدأ الرواية في سياق إلقاء الضوء على الشخصيات والتلميح بطرف الأزمنة في الرواية، ويغلب على تلك الصفحات الوصف من الخارج "عمر فارغ الطول يمتلئ حيوية وشباباً..." (العليان، قماشة، 2021، ص 14) والتعريف بكل شخصية وعلاقة كل منها بالآخر. وعند موت الجميع يظهر مرة أخرى ساعة افتتاح سلمى وصديقتها سعاد للمستشفى ليصف حالتها "بعد صدمة وفاة والدها المفاجئة لم تقو أعصابها على الصمود، فوجدت نفسها تنهاوى وتسقط في دوامة الإنهيار والخواء، أمضت أياماً في المستشفى تهذي وتعاني من هجوم الكوابيس المرعبة" (العليان، قماشة، 2021،

ص 68)، والاجتماع الذي تم في بيت عائلتها حيث اجتمع أعمامها وعماتها، ودار نقاش بينهم حول من يستضيف أبناء أخيه منهم، حتى يحسم عمر هذا النقاش بقرار زواجه وأنهم صاروا كباراً لا يحتاجون لكفالة أحد، وتفكير سلمى في ترجمة الكتاب الأخضر

وأما ظهوره الثالث فعند سفر سلمى بصحبة خالد وعمر وزوجته وأبنائهما الصغار إلى كركوك، ويشرع في وصف رحلة بحثهم عن عائلتهم (أقارب مهم زينب)، وتنوع طرق البحث من طرف كل منهم، فتارة سؤال الناس في الشارع، وتارة إلى الصالون النسائي، وتارة إلى قسم الشرطة، ومدى المعاناة التي مروا بها حتى بلغ التعب مبلغه منهم وفكر عمر في ترجمة الكتاب ثم السفر حيث قاربت إجازته على الانتهاء

فظهر الراوي العليم إذن في الرواية يكون في المراحل الانتقالية للرواية، وفي الأوقات الحرجة التي تمثل أهمية كبير عند البطلة وبقية الشخصيات. ولا شك أن هذا الظهور يتيح مزية السرد من الخارج، ومن ثم يعطي مساحة لرصد أعم وأشمل، فيحاول الإلمام بكل كبيرة وصغيرة تمد المتلقي بصورة أوضح عن طبيعة الشخصيات ودرجة أهمية الحدث، وكذلك كل ما هو مؤثر في مجرياته

أما سلمى فقد استحوذ صوتها على مساحة أكبر من بقية الأصوات في الرواية كما تقدم، وأما خالد فقد كان له مأساته الخاصة التي تتعلق بما حباه الله من جمال خلقه أشبه بها جمال والدته زينب التي طالما تحاكي الناس به؛ ولذا فقد اختص بمساحة من البوح صوراً فيها مدى معاناته بسبب تلك المأساة، وأما الجدة (أم زينب) فاحتل صوتها مساحة تخص الكتاب الأخضر، فعندما طلبت سلمى من يوسف ابن خالتها ترجمته كان الراوي فيه هو الجدة

فهذا دليل على أن الرواية أفسحت المجال لأكثر من راوٍ، ولم ينحصر الصوت السرد في الراوي العليم ولا في بطلة الرواية، مما أسهم في إثراء الرواية بالرؤى والمشاعر المختلفة، وخلق حوارية منتجة بين أصواتها. ولو ضربنا مثلاً بكركوك في عيني سلمى وخالد، لوجدناها تمثل لسلمى ذكرياتها الحزينة وطفولتها البائسة، حيث أخذت تتأمل شوارعها وأهلها فتذكرت والدتها زينب التي تربت ونشأت في هذا المكان، مما ذكرها بحرمانها من أمها حية وميتة "أنشيت بأي شيء يعيدني للماضي، لطفولتي الضائعة وشبابي الممزق على مشانق الأحزان... تنهمر الدموع شلالات من عيني وأنا أتذكر أمي" (العليان، قماشة، 2021، ص 123)

بينما كان خالد محايداً في رؤيته لها فلم يكرها ولم يحبها، لكنه عند رؤية أهله أحس بشيء جديد لم يعهده من قبل، شيء من الألفة والدفء العائلي "لم أكره مدينة أمي ولم أحبها... بيد أن الإحساس الجميل بدفء الأهل والأحبة اجتذبتني إلى هذه المدينة وعقد بيننا

أواصر من نور لا نراها، ولكن نشعر بها" (العليان، قماشة، 2021، ص 183). وربما تعددت الأصوات عند الراوي الواحد فسلمى نفسها ستغير من شعورها تجاه كركوك فيما بعد عندما ستعثر على أقاربها في حمام النساء" نعُثها بالمدينة الحزينة، لكنها وبين يوم وليلة تبدلت وتزينت" (العليان، قماشة، 2021، ص 146)

يشير باختين ميخائيل إلى أن "الرواية المتعددة الأصوات ذات طابع حوارى على نطاق واسع، وبين جميع عناصر البنية الروائية، توجد دائماً علاقات حوارية؛ أي أن هذه العناصر جرى وضع بعضها في مواجهة بعضها الآخر، مثلما يحدث عند المزج بين مختلف الألحان في عمل موسيقي" (ترجمة جميل نصيف التكريتي، 1986، ص 59)

إن التنوع بين السرد الموضوعي من جهة والسرد الذاتي من جهة أخرى، ليمد القارئ بحرية في الاختيار بين الرؤى، ويعكس الصراع الواقعي بين الداخل والخارج، بين مكامن الذات والواقع الخارجي

وقد تمثل هذا الصراع في حوار سلمى الذاتي (المونولوج) وذلك بعد موت أمها، وتفاجأت بزواج أبيها من فاطمة "ثرى من تكون؟ وهل تشبه أمي؟ ... عدنا أيتاماً أكثر من ذي قبل، أيتاماً بوفاة أمي، وتزداد فداحة اليتيم بفقد أبي لزوجاه" (العليان، قماشة، 2021، ص 38).

3. تيار الوعي:

يعرف روبرت همفري (Robert Humphrey) نوعاً "من القصص يركز فيه أساساً على نوع من مستويات ما قبل الكلام من الوعي، بهدف الكشف عن الكيان النفسي للشخصيات" (ترجمة محمود الربيعي، 2015، ص 27)

وقد ارتكزت عليه الكاتبة رغبة في سبر أغوار الشخصيات، في محاولة لإطلاع المتلقي على عوالمها الداخلية، والبحث عن مبررات اشتغال الأحداث وعلاقات التوازي بين العالمين الداخلي والخارجي.

يوضح روبرت همفري "وتيار الوعي ليس تكتيكاً لذات التكنيك، ولكنه أسلوب يعتمد على إدراك قوة الدراما التي تعمل في أذهان البشر" (ترجمة محمود الربيعي، 2015، ص 54) إن من أبرز تكتيكات تيار الوعي التي استخدمت في الرواية ما يأتي:

3 - 1 المونولوج الداخلي المباشر:

هو ذلك النمط الذي يمثله عدم الاهتمام بتدخل المؤلف، وعدم افتراض أن هناك سامعاً،

وباختصار فإن المونولوج يقدم على نحو عشوائي تمامًا. (ترجمة محمود الربيعي، 2015، ص 60)

من أمثلة ذلك ما ورد في ذهن سلمى بداية وصولها إلى كركوك ورحلة البحث عن أقاربها "هل كنتُ هشةً طول عمري أم أن الظروف التي مررتُ بها بالغتُ في إبلامي حد الهشاشة بداية من مرض أمي العجيب واختفائها من مشهد حياتي منذ وعبتُ على الدنيا وحتى وفاتها الغربية..." (العليان، قماشة، 2021، ص 126) لقد أثار منظر المدينة بسكونها مكامن ذات سلمى، لا سيما وقد أخذت منذ وصولها تفحص وجوه المارة تلتمس شيئًا بأقاربها، فربما يكون إحساسها انعكاسًا لمشاعر الغربة وترقب الالتقاء بالأهل، فتداعت على ذهنها المعاني لتتجدد ذكرى موت أحبائها بداية من أمها ومرورًا بزواج أبيها، فموت أبنائه (الأجنة) الخمسة، ثم موت زوجته فاطمة، ثم موت أخيها بدر، فموت أبيها حتى تصل إلى مرض خالد

لقد أتاح استخدام هذا التكنيك تكرر سرد الأحداث، ولكن برؤى مختلفة حتى ولو صدر عن الشخصية نفسها/ سلمى، وذلك من منظور الأثر الذي خلفته تلك الأحداث على نفسياتها، وكذلك بعض الإضافات الدقيقة التي تعمق هذه الأحداث "زواج أبي والهزات التي حفرت نوبًا في داخلي بوفاة أبنائه" "صدمتي بوفاة أخي المعاق بدر... وكيف خُطف من بيننا" "موت أبي المفاجئ الذي قضم ظهري" (العليان، قماشة، 2021، ص 126) وقد أسهمت الصور في تصوير مدى الألم والمعاناة التي واجهتها سلمى، وكيف أسس ذلك لوجود مأس متكررة في حياتها

ولا شك أن هذا يحيلنا إلى وظيفة فنية أخرى أسفر عنها استخدام الكاتبة لهذا التكنيك، ألا وهي تفجير طاقات الشعرية من خلال وصف مكامن الذات، وصورة الواقع المرير. ففي سياق تداعي هذه المعاني على وعي سلمى عقيبتُ على كل ما سبق من مأس بقولها: "يحيط بي اليتيم بغلالة رمادية حزينة لطمني القدر بمرض خالد طفلي الصغير الأثير... مرضه كان القشة التي قصمت ظهر البعير الضربة الأخيرة التي حطمت الصخرة فلم أعد أنا كما أنا" (العليان، قماشة، 2021، ص 126) فقد شبهت فقدانها الأب والأم بثوب يحيطها ويشملها، وبإلته يسترها إنما هو ثوب رقيق، فلا يمكن لأحد أن يسد مكانهما؛ ولذا فلونها رمادي غائم قائم وربما اختارت هذا اللون دون الأسود؛ لما تحمله الكلمة من إحياءات ودلالات تتعدى مجرد اللون، فمادة (رَمَد) في لسان العرب تدور حول هياج العين، ودُقاق الفحم من حُرارة النار، والغبار، والكدر، الهلاك. (ابن منظور، 1414هـ، ص 185)

وقد عبرت عن فداحة المصيبة التي أصابها بمفاجأتها بمرض خالد الخطير بتجسيدها القدر في هيئة إنسان يلطمها على وجهها، فمرضه كان بمثابة الصدمة والقاضية التي قضت على البقية الباقية.

3 - 2 المونولوج الداخلي غير المباشر:

يوضح روبرت همفري أن المونولوج غير المباشر فيعطي القارئ إحساساً بحضور المؤلف المستمر، وهذا الفرق يعنى بدوره بفوارق خاصة، مثل استخدام وجهة نظر المفرد الغائب، بدلاً من وجهة نظر المفرد المتكلم، واستخدام الطرق الوصفية والتفسيرية على نحو واسع (ترجمة محمود الربيعي، 2015، ص66)

فالرجفة التي أصابت سلمى عند دخولها بغداد وأثناء مراقبة الجنود الأمريكيان لسيارتهم؛ ومن ثم قبضها على يد خالد الذي أطلق آهة على إثرها، ذكّرنا بمرضه ورحلة علاجه المضنية، وخلق داخلها تياراً من الوعي يبدأ بالأسئلة التي جاءت بمثابة المحرك لهذا التيار "كيف تعافى خالد وبدأت الحياة تدب في أوصاله من جديد؟ ومتى وأين ولماذا؟ أسئلة تطلق حولي كفراشات حائرة دون أن أملك لها إجابة محددة، أهي دعوة صادقة صعّدت إلى السماء فاستمطرت الإجابة؟ لا أدري لكنني أعلم أنان الدموع التي سكبته في كل مكان، في الحرم الشريف" (العليان، قماشة، 2021، ص 105) وتأتي الإجابة على هيئة سيل من المعلومات عن رحلة خالد العلاجية، تُقدم للقارئ لأول مرة وتتناول تفاصيل تلك الرحلة، بداية من علاجه بمستشفى التخصصي، ومروراً بالشيوخ المعالج بالقرآن ووصفاته السدر والعلل، إلى المعالج بالكي الذي اقترحه عمها، حتى دخوله غرفة العمليات وبشرى الطبيب لسلمى، ربما نلمح صوت الكتابة الخفي من خلال تلك التعددية في عوالم الطب فهناك الطب العضوي المعتمد على المستوى الرسمي، وإلى جانبه يوجد ألوان من الطب البديل (العلاج بالقرآن- الكي...) . بذلك يأتي المونولوج غير المباشر بمثابة الرابط بين الوعي الداخلي والخارجي للشخصيات لا سيما البطل، وكذلك بين صور المأساة المختلفة في الرواية، وفي الوقت نفسه مبرراً للحالة النفسية للشخصيات والتصعيد الدرامي للأحداث.

3 - 3 مناجاة النفس:

"ويختلف هذا التكنيك- مناجاة النفس- عن المونولوج الداخلي في أنه وإن كان يتحدث به على انفراد، إلا أنه يقوم على التسليم بوجود جمهور حاضر ومحدد... وزيادة الترابط؛ وذلك لأن غرضه هو توصيل المشاعر والأفكار المتصلة بالحبكة الفنية وبالفعل الفني، في حين أن غرض المونولوج الداخلي هو- قبل كل شيء- توصيل الهوية الذهنية" (ترجمة محمود الربيعي، 2015، ص74)

فلما ماتت زينب أم سلمى وغاب والدها لفترة افتقدته بشكل كبير، فظلت تسأل جدتها وتكرر السؤال، حتى أجابتها في إحدى الليالي أنه سيصل ومعه عروسه الجديدة، فأصابها الوجود من هول الصدمة، وانكفأت على ذاتها وظلت تردد داخلها "أمي أمي... ماتت أمي وبعد حزن قصير تنساها يا أبي وتتزوج بأخرى وهل ستستسيك الأخرى أمي؟ تُرى

مَنْ تكون؟ وهل تشبه أمي؟... عدنا أيتامًا أكثر من ذي قبل أيتامًا بوفاة أمي وتزداد فداحة اليتيم بفقد أبي لزواجه" (العليان، قماشة، 2021، ص 38)

إن تقنية المناجاة هنا تسهم- بشكل كبير- في تشكيل هاجس الشخصية الرئيسية في الرواية، وتدور في أغلبها حول كل ما هو حرج، وهو وإن كان صادرًا عن شخصية معينة هي شخصية سلمى، فإنه يتسلل إلى مساءلة بقية الشخصيات، فالوالد كيف طاعته نفسه على الزواج رغم مدى عشقه لزينب؟ والجدة كيف نسيت زوجة ابنها عليّ رغم طول العشرة؟ وإختها ترى بم يشعرون تجاه هذه الزوجة الجديدة التي ستحتل مكان أمهم؟ وحتى فاطمة العروس ما شعورها تجاه سلمى وإختها؟ إنها بذلك تفتح آفاقًا أمام المتلقي للتفكير، وللتوقع، وإعادة بناء المواقف والأحداث

بعد فترة من الزمن تغيرت نظرة سلمى لفاطمة لما وجدته عندها من حب لأبيها ولهم، ولما لاقته لديها من اهتمام وحرص وحنين، بالإضافة إلى ما كانت تمتلك من حكمة في إدارة البيت والمواقف، لدرجة تمكنت معها من كسب الجميع لصفها، وجعلت سلمى تراجع ذاتها ويستوقفها تباين الموقفين: موقف أمها من جهة، وزوجة أبيها من ناحية أخرى "لماذا لم تكن أمي كفاطمة؟ لماذا انزوت وتحجرت وبكت فأبكتنا معها لَمْ لَمْ تحب أبي كما أحبته هذه الواقعة الجديدة؟ لَمْ لَمْ تهتم بأولادها كما اهتمت بهم صرتها وزوجة زوجها" (العليان، قماشة، 2021، ص 42)

إن المناجاة هنا تقوم على النفاذ إلى أعماق النفس صاحبة الحديث، ومعرفة الأفكار التي تدور بخلدنا، ويقوم هذا الأسلوب بخلق همزة وصل بين تفكير الشخصية والمتلقي، فيكشف لنا الحقائق، ويظهر لنا ما يشعر به الشخص تجاه بعض القضايا المهمة. (محدادي، علي، ص 6، 2015)

4. تقنية الحلم:

يرى فرويد، سيغmond أن الحلم بديل عن كلِّ من المضمون العاطفي والعقلي لتداعيات الأفكار التي قاد التحليل الشخص الحالم إليها. (ترجمة جورج طرابيشي، ص15، 1982) وفي الرواية يجسد الحلم عبث المبدعين بالقارئ حين ينقلونه إلى عالم تجاوزي للواقع تتشابك فيه الذهنيات لتصور حالة من الدراما النفسية والاجتماعية؛ إذ يمارس استحضار الحلم من طرف الكاتب تلك المناورات السردية التي تشتبك بصميم الأحداث المنضدة في حيز المعمار الروائي. (بوقراط، طيب وشرشار، عبد القادر، ص 54) وقد حاولت قماشة العليان توظيف تلك التقنية بما تحويه من علامات ورموز للتوغل في أعماق عوالم توازي أحداث الرواية لتحفيز ذهن المتلقي لاستنباط الدلالات ومقاربة المرجعيات المنتجة لإشكاليات الرواية. ولعلنا نبدأ من نهاية الرواية لكن بطريقة الارتداد للخلف (فلاش باك)

سيكون الحلم الأول من حيث الترتيب الزمني، وهو حلم جدة سلمى (أم زينب) حسب ترجمة الكتاب الأخضر "ثلاث نساء من بينهن عمتي يهجمن علي بضرارة ثم ينتزع عن أحشائي ويأكلها أمامي والدم ينز من أسنانهن المخيفة" (العليان، قماشة، 2021، ص159) ربما يتسق الحلم بما فيه من بعض الشخصيات، مثل: عمته مع أحداث الرواية الواقعية، فعمتها كانت تريد زواجها من ابنها الفاشل، ولما رفض والدها توعدته هو وابنته، وكذا يوجد بعض الإشارات التي تُعد بمثابة المؤثرات الداعمة لإنتاج الدلالة من خلال تقنية الحلم، فربما النساء الثلاث يشرن إلى نوعية المشاركين والداعمين للعملة في الاشتغال بالسحر، والمشهد المخيف والمقزز وهو انتزاع أحشائها وأكلها بأنياب متوحشة ربما لا نراه إلا في أفلام الرعب و(الفانتازيا) ولا سيما مصاصي الدماء (دراكولا)، وهو مشهد استباقي ينبئ ويتسق مع ما سيحدث بعد ذلك من موت أجنحتها الذكور السبعة، بالإضافة إلى ما يرمز إليه الحلم من قسوة لا مثيل لها وتعهد لإحداث الضرر بطريقة لا إنسانية

ويأتي الكابوس الأول بعد زواج الجدة بعبد الله جد سلمى "كلب أسود ضخم يدور حولي بجنون، وهناك قطتان شرستان بذات اللون تقبعان في آخر الحجرة، وكأنهما متأهبتان للانقضاض على شخص ما. انتزع الكلب الأسود قطعة من لحمي تخر دمًا وألقاها للقطتين المفترستين، بدأت في التهامها وأنا أشعر بمخالبهما تنهش في لحمي وأتألم دون صوت" (العليان، قماشة، 2021، ص163) إنه وإن كان ترتيب هذا الحلم الثاني زمنياً، إلا أنه يُعد البداية الحقيقية التي تنبئ عن مأساة عائلة سلمى الكبرى في الرواية. يكرس هذا الحلم لبنية تحفيزية وتشويقية للمتلقي بعلاماته المبهمة/ كلب أسود- قطتان شرستان بذات اللون- اللحم- الدم، بالإضافة إلى تقنيتي اللون والحركة، كل ذلك قد أسهم في تشكيل الصورة المنامية، التي ظلت تتكرر بشكل أو بآخر لتمثل هاجساً يؤرق الجدة وهي في بداية شبابها حياتها الزوجية

إن ما يميز تقنية الحلم عند الكاتبة هو اتسامها بسمة **الدينامية والتوالد**، فكانت الجدة تعرف إن كان مولودها القادم ذكراً أم أنثى، وهل سيعيش أم سيموت؟ من خلال رؤيتها ترتدي خاتماً فإن كان مولودها أنثى كانت مبتسمة وينظر إليها الكلب ثم يهرول بعيداً، وإن كان ذكراً هجم عليها كالبركان ونزع منها الخاتم، وكذلك ينتزع من جسدها قطعة لحم ويلقيها إلى قطتين سوداوين. (العليان، قماشة، 2021، ص168) ومن هنا يصير الحلم في الرواية آلية من آليات التعبير غير المباشر عن معاناة الشخصيات وطريقة من طرق التفاعل مع تلك المعاناة التي تكرر وتدعم مفردات المأساة في الرواية. ولعلنا نضيف إلى السمات السابقة سمة التكرار، لا سيما مع الجدة التي وصلت إلى حالة من الاندماج والتماهي مع تلك التقنية لدرجة جعلتها تتخذ الحلم معياراً لضبط إيقاع الحياة "أضحت الأحلام والكوابيس رغباً عني هي المنظومة التي تسير بها حياتي، والميزان الذي أقيس به

مدى سعادتي أو تعاستي، ومواقيت الزمن لكل محطات حياتي". (العليان، قماشة، 2021، ص 168)

لم تقف سمة التوالد عند شخصية الجدة، فقد رأت سلمى في منامها بعد وفاة أبيها، وقد أمضت أيامًا في المستشفى بعدما هوت من الانهيار، والدها يعود من جديد يحتضنها بحب وحنان وفجأة يتحول إلى قط أسود ضخم فتصرخ برعب، ثم ترى الأحباب جميعهم حول فراشها: أمها، وأباها، وجدتها، وبدر، وفاطمة، وأطفالها الخمسة يلعبون حول السرير جذالين، ثم يتحول الأطفال الخمسة إلى خمس قطط سوداء تهجم عليها لتنهش جسدها، فتطلق سلمى صرخات هائلة تدوي في أنحاء المستشفى، تغمض عينيها فتري والدتها تقبلها وإلى جوارها فاطمة، تتساءل تحت تأثير الكابوس فاطمة والدتها معًا هل كانتا معًا؟ من التي أتت قبل الأخرى؟ وقبل أن يكتمل في السؤال في عقلها تكتشف أن أصابع المرأتين بدأت تتحول إلى مخالب. (يُنظر العليان، قماشة، 2021، ص 68)

لعله يمكننا أن نلاحظ وجود تشابه من حيث البنية العامة للحلم بين حلم سلمى وأحلام جدتها لأمها، وذلك من حيث: القطط السوداء- النساء- التحول. فالقطط بلونها الأسود لا تُعرف في واقع الحياة بالود، ويرتبط وجودها في أوساط الناس ببعض الحكايات عن الجن والعفاريت، والنساء كن متواجدات في الكابوس الأول لجدتها وربما ارتبط وجودهن بعمتها ومن اشترك معها- حسب تأويل أحداث الرواية- في حياكة السحر الأسود لابنة أخيها وزوجها وأسرتهما. ويشير التحول المخيف والخروج عن الطبيعة إلى التبدل القاسي والسريع التي تعرضت له حياة الجدة وعائلتها من بعدها، وإلى تلك المفارقة المريعة التي أصابت العائلة، فبينما كانت تتوقع الجدة وهي عروس شابة أن تفرح بعرسها وبداية زواجها فإذا بحياتها تتحول إلى جحيم مع أول ولادة وتتوالى المصائب إلى أن يموت لها سبعة أولاد وتبقى سبعة إناث، وكذلك ابنتها زينب التي كان يضرب بها المثل في الجمال، بينما كان من المتوقع أن تحيا حياة طيبة قوامها الهناءة والسرور مع من هام بها وهامت به، فإذا بها تتعزل في غرفتها وتكتئب وتظل تبكي طيلة اليوم حتى توفيت هي وزوجها وبدر ابنها وفاطمة بالطريقة نفسها ثم أجنبتها.

يرى فرويد، سيغmond أن الشطر الأكبر يكمن من عمل الحلم في خلق تحولات وانتقالات في غاية الدهاء أحيانًا، وهي تفيد في الوصل والربط بين مضمون الحلم وبين الفكرة الكامنة نفسها، المُصاغة من قبل الظروف التي استدعت الحلم. (ترجمة جورج طرابيشي، 1982، ص 27)

وإبان مأساة خالد وبعد سماعه مكاملة لأبيه تفيد بالقبض على السائق لارتكابه مخالفات عدة، يقول: "تسرقتني الأحلام والأوهام كل حين فأغفو في أي مكان لأرى وجهًا جميلًا

بعينين فيروزيتين يومئ لي بأن أتبعه، أسير مع أمي طويلاً في جنان خضراء حتى نسقط في الفضاء فتحملنا الغيوم في سماء زرقاء عميقة الزرقة، تتحد الغيوم فيذوب الفيروز وسط الزرقة الداكنة لتختفي أمي خلف السحب وأطير خلفها بأجنحة بيضاء" (العليان، قماشة، 2021، ص99) وهنا يتخذ الحلم سمة الاستباقية فينبئ بقرب التخلص من تلك الآلام التي تسبب فيها السائق لخالده، فيصبح الحلم استشرافياً يمثل الأمل لصاحبه في غد مشرق وفي تبدل الحال، وبالفعل سنعرف من خلال صفحات الرواية المتبقية أنه سيهجر دنس المعصية، ثم يمرض بالسرطان ويُشفى منه، ثم سيجد الدفاء في أحضان أقارب أمه بكركوك، بل سيعثر على رفيقة دربه/ ابنة خالته إيمان

وهكذا وكما رأينا فإن فضاء الحلم المترامي الأطراف في الرواية يؤثت كينونة إنسانية خاصة، تتجاذب بشكل ما مع المأساة، حيث تتعمق التجربة الإنسانية ضمن مسارات ذهنية، تستلهم من أنماط التمثيل الحياتي المندسة في فضاءات الرؤية الذاتية للذات والحياة والكون ككل. (بوقراط، طيب وشرشار، عبد القادر، 2020، ص60).

5. تشجير الصورة:

يوضح أولمان، ستيفن أن الصورة تُعد من أنجع الأدوات الفنية التي يمكن أن يعتمد عليها كاتب الرواية في تشكيل موضوعاته الرئيسية بأقصى ما يمكن من الدقة والتماسك والقدرة التعبيرية، وكذلك من أهم الوسائل الأسلوبية في رسم الشخصيات الإنسانية، إنها علامة تدل على السمات المميزة للشخصيات التي تستعملها. (ترجمة رضوان العيادي ومحمد مشبال، 2016، ص19)

وقد مثلت الصورة أطوار الرواية على مختلف أحوالها، تمثيلاً مسايراً للزمان والمكان، ومجسداً لفكر البطلة/ سلمى وبقية الشخصيات.

الطور الأول:

البداية مع أم سلمى كيف كانت؟ وكيف اختفت فجأة؟ "أمي أنشودة الحزن الجميلة في حياتي، قيثارة الأنغام والآلام والأحلام، عرفتها كأجمل مخلوقة في الكون، مخلوقة أسطورية نسجها الواقع بخيوط من حلم" (العليان، قماشة، 2021، ص21) ولعل الصورة ينسق أولها وآخرها واختيار عناصرها، فاستخدام مصطلحات الموسيقى والغناء من أنشودة وقيثارة وأنغام، وما تنتجه من فن راقٍ قوامه المشاعر الرقيقة والجمال والانسجام، تنسق مع أفعل للتفضيل "أجمل"، والخيوط الرفيعة، والحلم وما يوحي به من وجودها كطيف يوجد شك في وجوده. وهي صورة تلخص حياة الأم حتى لمن لم يلم بتفاصيل الرواية، وقد كانت وفاتها إيذاناً ببداية عهد جديد "أسدل الستار وانتهت المسرحية وانحنى الممثلون

بتحية الوداع" (العليان، قماشة، 2021، ص 33) ونشعر مع هذه الكناية كأن حياة سلمى هي التي انتهت وليس أمها.

الطور الثاني:

هو زوجة أبيها فاطمة "فاطمة غيرت أبي يا أمي... فاطمة عجنته بماء الحب والعناية والاهتمام، وأعدت صياغته من جديد، أدخلته بوتقة الشوق والانتظار والترقب، صهرته ثم صيرته لنا رجلاً آخر" (العليان، قماشة، 2021، ص 40) تعكس لنا الصورة مدى التحول الذي أصاب علي السعيد أبا سلمى، وما يشعر به تجاه فاطمة، وكأنها جاءت في وقتها تمامًا بعد معاناته مع المرأة التي أحبها وكان لا يرى لها مثيلاً، لكنه لم يذق معها طعم الراحة أبدًا. والعجين خليط من عناصر متعددة ومختلفة وكذا فالحب شيء والعناية والاهتمام شيء آخر، وما ينتجه العجين بعد الانصهار عنصر مختلف ومكتمل في الوقت ذاته. ولعلنا نلاحظ مفردات الصورة المتباينة عنها في الصورة السابقة: ماء/ الحياة- الحب والعناية والاهتمام/ قوامها- الشوق والانتظار والترقب/ متعتها. وعن تحولات تلك المرحلة بموت أجنة فاطمة وحالتها المتردية تصفها سلمى بقولها حينما زارتها في المستشفى: "أعيتها الحيل وأدماها اليأس فذبلت زهرة حياتنا" (العليان، قماشة، 2021، ص 53) وترسم الكناية شخصية فاطمة السمحة الطموحة التي أضفت السعادة على الجميع، وأن ما حدث كان كبيرًا فادحًا يفوق قدرة تحمل أي بشر، وإلا فليس سهلاً أن تصل إلى هذه الحالة

الطور الثالث:

ويمثله ما بعد وفاة والدها "... فالصفعات متتالية وشديدة الوطأة مما أدخل بتوازنها... ضباب يغشي عينيها مما يحجب عنها الرؤية الصحيحة" (العليان، قماشة، 2021، ص 72) رغم بساطة الصورة فإنها عكست سرعة توالي النوائب والنكبات وهي الفتاة الصغيرة التي تقف وحدها تقريبًا؛ ولذا اختل توازنها ولم تعد تعي ما يحدث من سرعته من جهة وغرابته من جهة أخرى، لدرجة أفقدتها الرؤية كذلك، فقد جعلت الكاتبة ذلك الأثر النفسي كأنه ضباب يحجب الرؤية البصرية، وإن كُنّت بها الرؤية الذهنية وتبصر الأمور وعدم القدرة على التصرف

الطور الرابع:

هو رحلة البحث عن الحقيقة، وتقابلنا فيه شتات من الصور تناسب طبيعة المرحلة من شتات أذهان الشخصيات المحورية/ سلمى- خالد- عمر، وحتى بعض الشخصيات الثانوية، مثل سعاد صديقة سلمى. فبعد خروجها من بيت عمته وأسمعتها خطبة عن ضرورة الاهتمام بإيجاد شريك الحياة المناسب تقول: "خرجتُ من بيتها وشظايا كزجاج مكسور

تملاً قلبي" (العليان، قماشة، 2021، ص 86) فتشبيهه قلبها المجروح بالإصابة بزجاج مكسور لم يترك مكاناً إلا وجرحه ليوحى بتمزق نفسها، وعند تفكيرها في شرود خالد وحزنه قالت: "استلقيت على فراشي أضاجع همومي الكثيرة" (العليان، قماشة، 2021، ص 88) كناية عن ملازمة الأحزان لها حتى في موضع الراحة والاسترخاء. وفي مرض خالد "ما بالي أهتز كشجرة عجفاء في عين عاصفة، وأنا أرى الحجاج يستخدم المشرط في ظهر خالد" (العليان، قماشة، 2021، ص 109) ليعكس التشبيه حالتها الهزيلة وعظم المسؤولية الملقاة على كتفها ومدى تأثيرها عليها. وفي رواية خالد عن مرضه يقول: "أنا والمرض بضعفي وهشاشتي وذنوبي بلا أسلحة والمرض وحش غادر بلا رحمة ينهش ما تبقى من أعضائي، ويمتص دمي ويريق شبابي بلا رافة". (العليان، قماشة، 2021، ص 119) فكأن المرض صار صديقاً ورفيقاً وقد تمثلت أنه في الضعف والهشاشة والذنوب؛ ومن ثم التجرد من أي مقاومة، وربما شبه الإيمان بالسلح الأفي الذي افتقده ربما بسبب رحلة الغي التي مر بها بسبب اعتداء السائق عليه وتحول الأمر بعد ذلك إلى تلذذ واستمتاع، وفي الوقت ذاته يتخيل المرض كوحش شرس التهمه على حين غرة، وكأنه جاء مترصداً ليقضي عليه ويدمر حاضره ومستقبله

الطور الخامس:

وهو وصول سلمى وبصحبتها أخاها وزوجة أخيها عمر وطفلهما إلى "كركوك"، وتنقسم إلى مرحلتين: الأولى/ صورة الحزن، والثانية/ صورة الفرح، فوجد من الأولى " تنهمر الدموع شلالات من عيني" (العليان، قماشة، 2021، ص 124)، "المدينة جميلة لكنها حزينة" (العليان، قماشة، 2021، ص 125)، "خرجت مترنحة لا تدري أين تذهب" "أفكارها تتقاذف في عقلا كحبات الفيشار على سطح ساخن" (العليان، قماشة، 2021، ص 136)، ووجد من الثانية "خلعت عنها رداء الحزن والخجل والخفر، وتعرت أمامنا وأمعنت في الاحتفاء بنا لتراقصنا في جذل وحبور، فتحت ذراعيها لتحضنا فألقينا أنفسنا في أحضانها نعب من حنانها بتعطش من أمضى دهوراً يبحث عن الماء" (العليان، قماشة، 2021، ص 146) وربما لم نعثر على صورة مركبة مثل هذه في نطاق القسم الأول الذي عبرت صورته الجزئية عما تعانیه سلمى ومن معها من شتات وإحساس بالضيق، بينما في الثاني تشعرونا هذه الصورة ومثيلاتها بمدى الاستقرار النفسي للشخصيات وإحساسهم بالأمان وكم أنهم وجدوا ضالتهم بين أحضان أهليهم، وقد تحول كل شيء في رؤيتهم من الحزن والشقاء إلى البهجة والدفء، وانعكست الحالة النفسية على المدينة التي كانت تضيق بهم ذرعاً فصارت تحتضنهم وترحب بهم. إن هذه الصورة لتعبر عن حالة الوصول بعد التيه، والنهل بعد الحرمان، وهو حصول على كل شيء بعد فقدان أقل شيء.

وهكذا نرى الصورة في الرواية كما وضح أولمان "تنمو من التماثلات المحكمة إلى

الاستعارات المدعمة، وهي قادرة على أن تتطور إلى رموز أساسية... وتضطلع بدور دينامي في حمل معناه وتعميق تأثيره الفني" (ترجمة رضوان العيادي ومحمد مشبال، 2016، ص50) ولعلنا نشبهها بشجرة تنمو من بداية الرواية إلى نهايتها، لكنها شجرة تكثر فيها الأشواك وإن نمت فيها ورود أو زهور فلا تفتأ أن تذبذب وتتساقط، وربما وجدنا هذا الوعي نفسه لدى بعض شخصيات الرواية، فخالد بعد اعتداء السائق عليه، وعودته إلى البيت يقول: "لم يلتفت لي أحد فالفاجعة كبيرة كشجرة عملاقة تبدو مصيبيتي كفرع من الفروع" (العليان، قماشة، 2021، ص97) وتقول سلمى أثناء تواجدهم في "كركوك"، وبعد التقائهم بأقاربهم: "بكيْتُ شجرة الفقد التي ما فتئت تنمو داخلي كلما فقدتُ أحبتي الواحد تلو الآخر، ترويهها دموعي الغزيرة، ويغذيها الخوف من المجهول الذي يسكنني منذ فقدتُ أمي، أوراق امتصت رحيق العمر، وانسلت متهافتة متراشقة بلهيب تلظى". (العليان، قماشة، 2021، ص147)

الخاتمة:

وهكذا تبدي لنا مدى تجذر المأساة في النص الروائي "بديل الوطن"، وإلى أي حد بلغ اشتغالها فيه، من خلال تفعيل عناصرها وانتظامها في أحمته وسداه، ولعلنا نستنتج من الدراسة ما يأتي:

1. برزت صور المأساة من خلال الموت لأفراد عائلة بطلة الرواية/ سلمى، بطريقة متشابهة ومتكررة، وبعض المحن الأخرى المصاحبة.
2. تحققت عناصر بنية المأساة- كما نقل عن أرسطو- في الرواية، وهي: التحول، والتعرف، والعقدة، والحل، وداعية الألم.
3. تتشكّل بنية المأساة من خلال بعض التقنيات الفنية، وأبرزها ما يلي:

3 - 1 الزمن النفسي: وفيه تتعطل مؤشرات القياس الزمنية المادية، ليصبح الإحساس الداخلي والرؤية الذاتية للشخصيات هو المرجع الحقيقي لضبط الحياة

3 - 2 توزيع السرد: فبالرغم من استحواذ البطلة على النصيب الأكبر من أصوات الرواية باعتبارها الشخصية المركزية، فإن السرد قد توزع على شخصيات الرواية بالإضافة إلى الراوي العليم، مما أسهم في إثراء الرواية بالرؤى والمشاعر المختلفة، وخلق حوارية منتجة بين أصواتها، وقد أثمر ذلك تحقق الموضوعية بقدر كبير في الرواية، وأفسح المجال أمام المتلقي للاختيار والإضافة والنقد البناء.

3 - 3 تيار الوعي: وقد ارتكز في الرواية على ثلاثة تكتيكات فنية: المونولوج الداخلي

المباشر، والمونولوج الداخلي غير المباشر، ومناجاة النفس. وقد أتاحت للمتلقي الاطلاع على عالم الشخصيات الداخلي، وما يحدث داخله من صراع ورؤى وهواجس، ربما أسهمت في خلق محركات أفعالها وسلوكياتها، إنها بذلك تشكل إضافة للمتلقي في المشاركة في التفكير لحل أزمت الرواية

3 - 4 تقنية الحلم: وقد اتسم في الرواية بسمات عدة، أبرزها: التحفيز - التوالد والدينامية - الاستباقية.

ونجحت الكاتبة في توظيف ما يستند إليه من علامات ورموز للإيحاء بالدلالات الكامنة داخل العقل الباطن (لاوعي) للشخصيات، وإحداث التوازي بين العالمين الداخلي والخارجي

3 - 5 تشجير الصورة: فقد أسهمت الصورة في تشكيل بنية المأساة في الرواية من خلال أطوار عدة مرت بها أحداثها، ومثلت ما يشبه الشجرة المتجذرة أصولها، والمورقة بحيث تتخلل عوالم وفضاءات السرد في النص الروائي، لكنها لا تنتج إلا الآمًا ولا تثمر إلا أشواكًا تُدمي كل من يقترب من ظلالها الوهمية.

4. تحقق التوازي بين مفتح الرواية وختامها، فالمریضة الشابة في العيادة قالت سعاد لسلمى عنها: "لقد ماتت بالطريقة نفسها يا سلمى"، وفي ختامها أرسل يوسف ابن خالة سلمى لها رسالة على الجوال: "سلمى جدتي ماتت اليوم بنفس الطريقة". لتصير الرواية مفتوحة على كل الاحتمالات أمام المتلقي، فبعد إحساس سلمى بالانفراج بعد الالتقاء بأقاربها وإحساسهم بالدفء العائلي يأتي هذا الخبر، فهل هو نهاية لهذه المعاناة بموت جذر العائلة؟ أم هو استمرار لتلك المعاناة حتى يُجفف نسل العائلة؟

5. أبرزت الرواية بعض التناقضات والصراعات، من خلال الثنائيات المتضادة:

الإيمان/ السحر - العلم/ الجهل - حجاب/ أذكار - رجل ملتج سيقراً القرآن/ العجوز الساحرة - عبد الله السعيد الطموح الناجح/ جواد ابن العمّة التافه الفاشل.

قائمة المصادر والمراجع:

- أمندلاو (1997). الزمن والرواية (ترجمة بكر عباس). دار صادر.
- أديوان (2006). النص والمنهج. دار الأمان.
- أرسطو (2019). فن الشعر (ترجمة إبراهيم حماده). مكتبة الأنجلو المصرية.
- ألمان، ستيفن (2016). الصورة في الرواية (ترجمة رضوان العبادي ومحمد مشبال). رؤية للنشر والتوزيع.
- باختين، ميخائيل (1986). شعرية دوستوفسكي (ترجمة جميل نصيف التكريتي). دار توبقال للنشر.
- بوقراط، طيب وشرشار، عبد القادر (2020). استراتيجية توظيف ظاهرة الحلم بين محوري التموّج الأثوي والتوقع الرؤيوي: روايات محمد مفلح نموذجًا. مجلة لغة كلام، 6(1)، 51-63. <https://doi.org/10.35779/1718-005-001-008>
- خالفي، حسين (2019). بنية المأساة في رواية دمية النار لبشير مفتي: دراسة نقد ثقافية ووجودية. مجلة دراسات وأبحاث المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، 11(1)، 256-276. <https://doi.org/10.35157/0578-000-034-020>
- الشريف، سمير بن أحمد (2003). المرأة الجديدة في قصص قماشة العليان. مجلة علامات في النقد، 12(47)، 663-670.
- أبو شندي، عصام، وحسين، إسماعيل (2019). صورة الرجل في روايات قماشة العليان. مجلة الآداب، 31(1)، 107-129. <https://doi.org/10.33948/1300-031-001-005>
- الصاعدي، أسماء (2022). صورة المرأة في روايات قماشة العليان: رواية "أنثى العنكبوت" نموذجًا. مجلة الجيل الجديد، 5(10)، 89-108.
- العليان، قماشة (2021). رواية بديل الوطن. مركز الأدب العربي.
- فرويد، سيغموند (1982). الحلم وتأويله (ترجمة جورج طرايشي، ط4). دار الطليعة.
- أبو الفضل، محمد بن مكرم بن علي وابن منظور، جمال الدين الأنصاري الرويفعي الإفريقي (1414هـ). لسان العرب (ط3). دار صادر.
- محدادي، علي (2015). تلقي شكسبير في الأدب العربي من خلال مأساة «هاملت» المناجاة الرابعة نموذجًا. مجلة مقالات، 8(5)، 35-43. <https://doi.org/10.12816/0032482>
- هلال، غنيمي (1997). النقد الأدبي الحديث. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- همفري، روبرت (2015). تيار الوعي في الرواية الحديثة (ترجمة محمود). المركز القومي للترجمة.
- يوسف، أمّنة (2015). تقنيات السرد في النظرية والتطبيق (ط2). المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

الترجمة الصوتية لمصادر ومراجع اللغة العربية:

- 'amandaluāwu (1997). al-zamanu wa-l-riwāyatu (tarjamatu bakri 'abbāsīn dāru ṣādirin
- 'adyawānu (2006). al-naṣṣu wa-l-manhaju dāru al-'āmāni
- 'aristū (2019). fannu al-shi'ri (tarjamatu 'ibrāhīma ḥammādih maktabatu al-'anjilū almiṣriyyati
- 'aūlmān styfn (2016). al-ṣūratu fī al-riwāyati (tarjamatu riḍwāna al'uyādiyyi wamuḥammadi mishbāl ru'uyatun lil-nashri wa-l-tawzī'i
- bākhtyn muykhā'u'īl (1986). shi'riyyatu dwstifsky (tarjamatu jamili naṣīfi al-takrītiyyi dāru tūbqāl lil-nashri
- bwqrāt tyb wshrshār 'abd alqādiri (2020). a'asattirrā'utyjya tawzīfi zāhirati alḥilmi bayna maḥwaray al-tamawwuqu'ī al'unthāi wa-l-tawaqu'ī al-ru'uyī riwāyāti muḥammad miflāḥ namūdhajan mijallatu lughati kalāmin 6(1)51-63 €. <https://doi.org/10.35779/1718-005-001-008>
- khālifi ḥusaynu (2019). binyatu alma'asi fī riwāyati dumyata al-nāri libashīrin muftī dirāsatin naqḍin thaqāfiyyatun wawujūdiyyatun mijallatu dirāsatin w'abḥāth almajallatu al'arabiyyatu fī al'ulūmi al'insāniyyati wa-l-iājtīmā'iyyati 11(1)256-276 €. <https://doi.org/10.35157/0578-000-034-020>
- al-sharīfu samīru bnu 'aḥmada (2003). almar'atu aljadīdatu fī qaṣaṣi qumāshati al'allayin mijallatu 'alāmātin fī al-naqḍi 12(47)663-670 €.
- 'abū shndiyyin 'iṣāmun waḥusaynun 'ismā'īlu (2019). ṣūratu al-rajuli fī riwāyāti qumāsha al'allayin mijallatu al'ādābi 31(1)107-129 €. <https://doi.org/10.33948/1300-031-001-005>
- al-ṣāa'diyyu 'asmā'a (2022). ṣūratu almar'ati fī riwāyāti qumāshata al'allayin riwāyatu "unthā al'ankabūti unmūdhajan mijallatu aljili aljadīdi 5(10)89-108 €.
- al'allayā'un qumāsha (2021). riwāyatu budaylin alwaṭani markazu al'adabi al'arabiyyi
- furuīdu sīghumūndu (1982). alḥilmu wata'awīluhu (tarjamatu jawurji ṭarābīshī ṭ dāru al-ṭalī'ati
- 'abū alfaḍli muḥammadu bnu mukrami bni 'aliyyin wābnu manzūrin jamālu al-dīni al'anṣāriyyu al-rū'ayfa'iyyu al-'ifrīqiyyu (1414h). lisānu al'arabi (t3). dāru ṣādirin
- miḥdādiyyun 'ly (2015). talaqqī shksbyr fī al'adabi al'arabiyyi min khilāli ma'asāta " hāmlt " almunājāta al-rābi'atu namūdhajan mijallatu maqālida 8(5)35-43 €. <https://doi.org/10.12816/0032482>
- hilālun ghunaymī (1997). al-naqḍu al'adabiyyu alḥadītha nahḍatu miṣra lil-ṭibā'ati wa-l-nashri wa-l-tawzī'i
- himfiriyyun rūbrut (2015). tayyāru alwa'yi fī al-riwāyati alḥadīthati (tarjamatu maḥmūdīn € mutarjamin almarkazu alqawmiyyu lil-tarjamati
- yūsufu āminata (2015). tiqniyyāti al-sardi fī al-nazariyyati wa-l-ṭabīqi (t2). almu'uassasatu al'arabiyyatu lil-dirāsāti wa-l-nashri

The Structure of Tragedy in the Novel *Badeel Al Watan* by Qamasha Al Aolyan

Weam Mohamed Anas⁽¹⁾

Abstract:

There is no doubt that the novel is among the most significant and prominent genres for expressing the deepest emotions of contemporary individuals, their daily struggles, and their efforts to resolve them. The Saudi novel - especially those written by women - has made significant strides in exploring realms previously untouched, addressing issues of interest to both the individual and society. This study examines the potential for tragedy to permeate and integrate into the narrative structure, assessing its contribution to the cohesion and organization of narrative elements. It seeks to establish tragedy as an active component within the narrative space, rooting its causes and developing its drivers to enhance the interaction of narrative elements and escalate the unfolding events. The study focuses on examining the manifestations of tragedy across all levels of the novel's narrative space, highlighting the key elements upon which its structure is built and analyzing how these elements function artistically in *Badeel Al-Watan* (A Substitute for Homeland) by Qamasha Al-Olayan. The images of the tragedy depicted through the repeated and similar deaths of the family members of the protagonist Salma. The elements of the tragic structure of the tragedy were achieved - as quoted by Aristotle - in the novel through the emergence of contradictions and conflicts through opposing dichotomies.

Keywords: Structure, Tragedy, Space, Techniques.

(1) Faculty of Arts -Imam Abdul Rahman Bin Faisal University (Dammam -K.S.A.)
wmans@iau.edu.sa